

بين الإرهاب والمقاومة المشروعة

وليد عبد الماجد كساب

باحث برابطة الجامعات الإسلامية

لا شك أن القضية الفلسطينية بأبعادها المختلفة تستقطب اهتمام العالم كله منذ وقت بعيد ، وذلك لما تمثله من أهمية خاصة فى حياة الشعب العربى والإسلامى ، فلم تحظ قضية من القضايا العالمية - خلال القرن الماضى - بمثل ما حظيت به هذه القضية من اهتمام العالم كله على اختلاف اتجاهاته وأيدولوجياته.

ومنذ أن نُكبت الأراضى الفلسطينية بالاحتلال الصهيونى ، والفلسطينيون فى جهاد لا ينقطع ، وعزيمة لا تفتر ، وقد سجل لهم التاريخ بحروف من نور مواقفهم البطولية التى أذهلت العالم كله ولقنته درساً فى حب الدين والوطن.

وما كان للغرب أن يدع الفلسطينيين ليدافعوا عن دينهم وأرضهم دون أن يتهموهم بالإرهاب ومعاداة السامية وانتهاك حقوق الإنسان اليهودى (المُسلم) فى حين يسعى الإسرائيليون فى الأراضى المقدسة فساداً ، يستبيحون الحرمات ، وينتهكون الأعراض فى ظل مباركة الغرب وصمت الآخرين. لقد خرقت إسرائيل بكل جسارة كافة المواثيق والقرارات الدولية فلم تعبأ بها ، فماذا استفاد الفلسطينيون من اتفاقية كامب ديفيد الأولى والثانية واتفاقية مدريد ١٩٩١م ، وأوسلو ١٩٩٩م. وغزة وأريحا ١٩٩٤م. وواى ريفر ١٩٩٨م وتقرير لجنة ميتشل ١٩٩٩م؟ وأخيراً رفضت إسرائيل استقبال أى لجان للتحقيق فى مجازر جنين وطولكرم وغيرها.

وفى ظل هذه الظروف القاسية تعرض الجهاد الفلسطينى لسوء فهم وتأويل من الذين لا يُحسنون فهم الإسلام وتعاليمه ، فاعتبروا المقاومة الشرعية اعتداءً على حقوق الآخرين تحت لواء الدين ؛ ومن أسف أن يقف الإسلام موقف المدافع عن نفسه من تهم هو منها براء!! وهو الدين الذى يدعو إلى نشر الأمن والسلام بين الناس على اختلافهم.

وقد بلغ هذا الفهم الخاص لمفهوم الجهاد ذروته بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر التى تعرضت لها الولايات المتحدة - القطب الأوحى فى العالم الآن - فأعلن

الغرب على الإسلام حرباً ضرورياً لا هوادة فيها أعادت إلى الأذهان تلك الحروب الصليبية التي انتهكت ستر العالم الإسلامي ، فما أشبه اليوم بالبارحة!! وما أشبه «بوش الابن» «بأرناط»!! وثمة فارقاً واحداً: فليس هناك صلاح الدين!! والبحث الذي بين أيدينا يتناول بشكل موضوعي الفرق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة بشكل عام ، وهو الموضوع الذي يشغل بال كل المهومين والمهتمين بتطورات القضية الفلسطينية سواء من المسلمين أم من غيرهم.

المبحث الأول تعريف الإرهاب

الإرهاب لغة :

(رَهَبَ) رهباً من باب تَعَبَ : خَافَ والاسم الرَّهْبَةُ ، فهو راهبٌ من الله ، والله مرهوب ، والأصل مرهوب عقابه ... (١).

و(أَرَهَبَ) فلاناً : خوَّفه وفزَّعه.. والإرهابيون : وصف يُطلق على الذين يسلكون سبل العنف والإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية.. (٢) وفي القرآن الكريم ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَعَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ (٣).

واصطلاحاً :

أثار مفهوم الإرهاب جدلاً واسع النطاق على مستوى العالم أجمع ، نظراً لما أحاط بتحديد هذا المفهوم من اعتبارات سياسية ونظرات مصلحة شخصية. وقد حاول البعض أن يصل إلى تعريف موحد للإرهاب ، غير أن التعريفات قد تباينت لاختلاف المعايير. فالبعض قد اعتمد أساساً على طبيعة الوسائل المستخدمة بأن تكون وسائل عنيفة من شأنها إثارة الرعب أو إحداث خطر عام يهدد الحياة البشرية والأمن العام. بينما يحلو للبعض البعض الآخر أن يُنظر إلى الأثر المترتب على الفعل وهو التدمير والتخريب كأثر مادي والرغبة والخوف كأثر معنوي لدى من

(١) الفيومي: المصباح المنير ، ص ٩٢.

(٢) مجمع اللغة العربية بالقاهرة: المعجم الوجيز ، ص ٢٧٩ بتصرف.

(٣) الأنفال / ٦٠.

يُوجَّه إليه هذا الفعل ^(١). ويمكن تعريف الإرهاب أيضاً بأنه اعتداء يصل إلى حد العمل الإجرامى ^(٢).

وفى ضوء ما سبق، يمكننا تعريف الإرهاب بأنه «استخدام العنف غير المشروع أو التهديد به ضد فرد أو مجموعة من الأفراد بغية الوصول إلى هدف معين، سواء قام بهذا الفعل فرد أو جماعة أو مؤسسة أو دولة من الدول. وعلى ذلك فإنه:

- ١- لا تعتبر المقاومة المشروعة والكفاح ضد المستعمرين إرهاباً.
- ٢- قد يقوم بالإرهاب فرد أو عدة أفراد أو مؤسسة أو دولة من الدول.
- ٣- قد يكون الإرهاب موجهاً إلى فرد أو عدة أفراد أو مؤسسة أو دولة أيضاً.
- ٤- لا تعتبر الأعمال التخريبية الهمجية التى لا تهدف إلى شئ عملاً إرهابياً لأن الإرهاب له هدف محدد.

وعن بداية إدراج مفهوم الإرهاب فى الأوساط العالمية نجد من يقول إن «علماء التاريخ واللغة يعرفون جيداً أن كلمة إرهاب Terrorism لم تُدرج فى قواميس اللغة ودوائر المعارف إلا مع الثورة الفرنسية التى قامت عليها وعلى مبادئها المدنية الحديثة ، ف لأول مرة فى التاريخ يستخدم الإرهاب كنظام مشروع للحكومة الثورية الجديدة من أجل فرض نظامها والذى قام لأول مرة أيضاً فى تاريخ البشرية على فكرة رفض أنظمة السماء وقوانين الكنيسة لتحل محلها أنظمة الإنسان وقوانينه الوضعية» ^(٣).

(١) د. إبراهيم العناني : النظام الدولى الأمنى ، ص ١٣٥ وما بعدها ، بتصرف.

(٢) عبدالله الأشعل : تطور الجهود القانونية الدولية لمكافحة الإرهاب ، مجلة السياسة الدولية ، العدد ١٤٩ ص ٥٨.

(٣) د. محمد مهنا : محاضرة عن الإرهاب وأزمة النظام العالمى «برابطة الجامعات الإسلامية».

وبناءً على ما سبق فإن مصطلح الإرهاب هو مصطلح نسبي يختلف عن المصطلحات الأخرى فى صعوبة ضبطه وتحديده ، ونظراً لتجدد الوسائل والأهداف التى تنفذ بها الأعمال الإرهابية التى تستهدف زعزعة الأمن والاستقرار فى أى بقعة من بقاع الأرض.

صور الإرهاب الدولي :

شهد العقد الأخير من القرن العشرين تطوراً مفاجئاً وسريعاً فى الأحداث والاتجاهات ، بل والسياسات الدولية ، فكان لسقوط روسيا - التى كانت تمثل أحد قطبي العالم - أثر كبير فى تضخم الدور الأمريكى فى العالم سواء فى المجال الثقافى أم الاجتماعى أم السياسى أم العسكرى.

وفى خضم هذه الأحداث التى شهدها هذا العقد ، تطورت صور الإرهاب الدولي بشكل مخيف كان له أثره على أمن واستقرار العالم أجمع ، والناظر إلى صور وأشكال الإرهاب الدولي يجد أنها لا تكاد تخرج عن خمسة هى :

١- الإرهاب التقليدى :

وهو الإرهاب الذى يعتمد على بعض الأسلحة التقليدية والقنابل المصنعة يدوياً ، وهو أقل صور الإرهاب خطراً ، بالنظر إلى كم الخسائر المادية والبشرية وكذلك المعنوية التى تنجم عن هذه الاعتداءات.

٢- الإرهاب النووى :

وهو الذى يعتمد على الانفجار النووى ويحدث خسائر بشرية ومادية كبيرة ، ولعل أحدث هذه الأسلحة تلك التى تسمى «بالقنبلة القذرة» وهى مواد نووية مشعة يمكن وضعها مع متفجرات تقليدية بحيث يؤدى الانفجار إلى انتشار الإشعاع المتولد على مساحات شاسعة محدثاً أضراراً بشرية ومادية فادحة ^(١).

(١) أحمد إبراهيم : الإرهاب الجديد ، مجلة السياسية الدولية ، العدد ١٤٧ ، ص ٤٨ ، بتصرف.

٣. الإرهاب البيولوجى :

وتنقسم الأسلحة البيولوجية إلى ثلاثة أنواع :

أ- البكتريا : وأشهرها الجمرة الخبيثة والمتموجة والكوليرا والطاعون.

ب- الفيروسات : وأشهرها الجدري والتوكسينات.

ج- السموم البكتيرية : وأشهرها البولتولينوم والرئيسين.

ويحتاج الإرهاب البيولوجى إلى تقنيات عالية لا تتوفر إلا فى الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا^(١).

٤. الإرهاب الكيماوى :

وهذا النوع يتسم بالبساطة والسهولة النسبية نظراً لإمكانية تصنيع المواد الكيماوية واستخدامها ، ويسبب خسائر فادحة ، ومن هذه المواد ما يكون موجهاً ضد الأعصاب ، ومنها ما يكون موجهاً ضد الإنزيمات الموجودة داخل الجسم البشرى.

٥. الإرهاب المعلوماتى :

ويتمثل فى اختراق وتخريب شبكات المعلومات وأجهزة الكمبيوتر والإنترنت بغرض التخريب ، ويمكن أن يتسبب هذا النوع من الإرهاب فى تعطيل الأنظمة الدفاعية وإخراج الصواريخ عن مسارها وإرباك حركة الملاحة الجوية.

(١) أحمد إبراهيم : مرجع سابق.

المبحث الثانى

إدانة الإرهاب فى المواثيق الدولية

شهد المؤتمر الأول لتوحيد قانون العقوبات الذى عقد فى بولندا سنة ١٩٣٠م بداية تسلل مصطلح الإرهاب إلى عالم الفكر القانونى ، وبدأ تناول أحكام مواجهته بالتنظيم الاتفاقى فى أعقاب حادثة الاغتيال الشهيرة التى وقعت فى مرسيليا بفرنسا فى التاسع من أكتوبر عام ١٩٣٤م ، والتى راح ضحيتها ملك يوغوسلافيا.. حيث بادرت فرنسا بالدعوة إلى عقد اتفاقيتين دوليتين تتعلقان بالإرهاب تم التوقيع عليها فى جنيف فى ١٦ نوفمبر ١٩٣٧م^(١).

وقد اعتبرت هذه الاتفاقية - التى أقرتها عصبة الأمم المتحدة - أن الإرهاب يشمل كل الأفعال الإجرامية الموجهة ضد دولة ما ، ولكن هذه الاتفاقية لم تدخل حيز النفاذ.

وفى عام ١٩٤٣م أوصت مجموعة الخبراء المتفرعة من لجنة جرائم الحرب التى شكلتها الدول المتحالفة فى لندن بأن تضاف إلى القائمة التى سبق إعدادها علم ١٩١٩م - والتى كانت تضم ٣٢ نوعاً من أعمال الإرهاب المنظم - أن تضاف إلى هذه القائمة جرائم الاعتقال الجماعى أو العشوائى التى تتم بقصد إرهاب السكان^(٢).

وبالإضافة إلى الاتفاقيات السابقة فقد صدرت بعض الاتفاقيات الأخرى ، ومنها^(٣):

(١) د. إبراهيم العنانى : مرجع سابق ، ١٢٩ بتصرف.

(٢) نفس المرجع بتصرف ، وانظر د. الأشعل ص ٥٩ ، مرجع سابق.

(٣) هانز بيتر غاسر : حظر الأعمال الإرهابية فى القانون الدولى الإنسانى ، ضمن كتاب «دراسات فى القانون الدولى الإنسانى» وانظر د. الأشعل ، مرجع سابق.

- اتفاقية طوكيو ١٩٦٣م ، المتعلقة بالجرائم وبعض الأفعال التى ترتكب على متن الطائرات.
 - اتفاقية لاهاى ١٩٧٠م المتعلقة بحظر الاستيلاء غير المشروع على الطائرات (أخذ الرهائن).
 - اتفاقية مونتريال ١٩٧١م . المتعلقة بحظر الأعمال غير المشروعة ضد سلامة الطيران المدنى.
 - اتفاقية منع وقمع الجرائم التى ترتكب ضد الأشخاص الذين يتمتعون بحصانة دبلوماسية ١٩٧٣م.
 - الاتفاقية الدولية لمناهضة أخذ الرهائن ١٩٧٩م.
 - الاتفاقية الخاصة بمناهضة التعذيب وغيرها من العقوبات الإنسانية ١٩٨٤م.
 - اتفاقية روما وأبرمت فى عام ١٩٨٨م بشأن مكافحة الأعمال غير المشروعة ضد سلامة الملاحة البحرية ، وكذلك بروتوكول روما حول قمع الأعمال غير المشروعة ضد سلامة المنصات الثابتة.
 - اتفاقية مونتريال : مارس ١٩٩١م.
 - الاتفاقية الأولى للجمعية العامة للأمم المتحدة ١٩٩٧م وتتعلق بمكافحة الهجمات الإرهابية.
 - الاتفاقية الثانية ١٩٩٩م . بشأن مكافحة تمويل الإرهاب.
- ومع كل هذه الجهود العالمية السابقة فقد شهد العالم حرباً ضروساً على ما تسميه الولايات المتحدة بالإرهاب ، وذلك عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر الماضى التى شهدتها وأدت إلى مقتل الآلاف من الأمريكيين تحت أنقاض مبنى التجارة العالمى والبنتاجون.
- وقد اتخذت الولايات المتحدة من مجلس الأمن ستاراً لها لقتل الأبرياء فى أفغانستان مستندة فى ذلك إلى قرار المجلس رقم ١٣٦٨ . وكذلك رقم ١٣٧٧ وكلها

تعد مسوغاً للولايات المتحدة وشركائها لقتل الأبرياء وترويع الأمنيين من أبناء الإسلام.

ومنذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر وأصابع الاتهام تشير إلى المسلمين ، وكأنهم هو المسؤولون عن هذه الأحداث المأساوية التى راح ضحيتها الآلاف من الأمريكان ، وأعلن الرئيس الأمريكى بوش أنه من ليس معه فى حربه ضد الإرهاب فهو بالطبع ضده ! فأى منطق هذا!!

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل امتدت أصابع الاتهام الأمريكية بوقاحة لتشير إلى الفلسطينيين وتصورهم للعالم على أنهم إرهابيون ، وتسمى كفاحهم ضد الاحتلال الإسرائيلى إرهاباً واعتداءً على أرواح الأبرياء من الشعب الإسرائيلى ، وهكذا قلبت الأمور ، وقُدمت إسرائيل للعالم على أنها شعب مظلوم مسالم يريد الفلسطينيون إبادته لأنه شعب الله المختار.

إن العالم كله لم يجرؤ على اتهام إسرائيل بالإرهاب ضد الشعب الفلسطينى مع أن إسرائيل وحدها تضم كمّاً هائلاً من المنظمات الإرهابية شديدة التطرف مثل : حركة كاخ : وهى أكثر هذه المنظمات تطرفاً ، وقد أسسها الإرهابى «مائير كاهانا» وأبرز أعمال هذه المنظمة هى مذبحة الحرم الإبراهيمى عام ١٩٩٤م على يد السفاح «باروخ جولد شتاين». وثمة حركات أخرى مثل : حركة توميت. حركة جوش إيمونيم، حركة الاستيلاء على المسجد الأقصى، حركة هتسيا، حركة تسيل، حركة أمناء جبل البيت، وأيضاً حركة الحشمونيين.

المبحث الثالث

موقف الإسلام من الإرهاب

من أسف أن يقف الإسلام موقف المدافع عن نفسه من تهم هو منها براء بالرغم من تاريخه ناصع البياض فى مجال حقوق الإنسان ، وكذلك المبادئ التى يقوم عليها الدين الإسلامى. ويمكننا استظهار موقف الإسلام من الإرهاب من خلال النقاط التالية :

- إن الإسلام قد كفل للإنسان حقوقه فى الحياة بصرف النظر عن عقيدته ، وهذا ما أشارت إليه آيات الكتاب العزيز ، يقول تعالى مؤكداً على حفظ كرامة بنى الإنسان وعدم امتهائها «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا»^(١). كما لم يمنع المولى عز وجل المسلم من إجارة المشرك إذا استجار به ، يقول تعالى «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ»^(٢).

- إن الإسلام قد نهى عن إيذاء الآخرين من غير المسلمين ، يقول صلى الله عليه وسلم «ألا من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة». فقد جعل النبى صلى الله عليه وسلم إيذاء الذمى بمثابة إيذائه صلى الله عليه وسلم ، ومن ثم نوحده بالخصومة يوم القيامة ؛ حتى الإيذاء فى الحوار نهى القرآن الكريم عنه فى قوله تعالى «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^(٣). وقوله سبحانه «وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ»^(٤).

(١) الإسراء / ٧٠.

(٢) التوبة / ٦.

(٣) العنكبوت / ٤٦.

(٤) النحل / ١٢٥.

- إن الأصل فى الإسلام هو السلم ، والقتال يعتبر عرضاً وليس أصلاً ، يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١). ويقرر قاعدة عامة فى قوله تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢). فالجواب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيها من المصالح ودفع المفساد ، وأن السلم هى الأصل التى يجب أن يكون عليها الناس ، فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب ، إذا جنح العدو لها ورضى بها (٣)، والشاهد عليه قوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤).

- إن الإسلام وإن أوجب القتال على المسلمين فى الحالات المستثناة فإنه وضع لهذا القتال ضوابط ومعايير تحكمها الشريعة ، وبهذا سبق الإسلام سائر الأنظمة الأخرى فى سنّ قواعد إنسانية للحرب بين البشر.

- إن الإسلام نهى عن ترويع الأمنين وتخويفهم ، وإن كان على سبيل الهزل أو الفكاهة ، ونهى النبى صلى الله عليه وسلم عن مجرد الإشارة للآخر بالسلاح حيث يقول فى الحديث الذى رواه أبو هريرة «لا يشر أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعل الشيطان نزع فى يده ، فيقع فى حفرة من النار» (٥). وفى حديث آخر عن أبى هريرة أيضاً ، يقول صلى الله عليه وسلم «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه» (٦). بل نجده يحذر المسلم من ترويع أخيه بنظرة مخيفة ، يقول

(١) البقرة / ٢٠٨.

(٢) البقرة / ١٩٠.

(٣) محمد رشيد رضا : الوحي المحمدى ، ص ٢٧٨.

(٤) الأنفال / ٦١.

(٥) رواه البخارى ومسلم.

(٦) رواه مسلم.

الحديث الذى رواه عبدالله بن عمر - رضى الله عنهما «من نظر إلى مؤمن نظرة مخيفة بغير حق أخافه الله يوم القيامة»^(١).

عقوبة الإرهاب فى الشريعة الإسلامية :

منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان ، تناول الإسلام قضية الإرهاب وسن لها عقوبات رادعة هى من أقسى العقوبات فى الإسلام ، وذلك لما لهذه الجريمة من آثار سلبية على أمن واستقرار المجتمع الإسلامى ، وقد سميت هذه الجريمة فى الشريعة بـ«الحرابة».

والحرابة - وتسمى أيضاً قطع الطريق - هى خروج طائفة مسلحة فى دار الإسلام لإحداث الفوضى ، وسفك الدماء ، وسلب الأموال وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل^(٢).

ويدخل فى مفهوم الحرابة «العصابات المختلفة كعصابة القتل وعصابة خطف الأطفال وعصابة اللصوص للسطو على البيوت والبنوك ، وعصابة خطف البنات والعدارى للفجور بهن ، وعصابة اغتيال الحكام ابتغاء الفتنة واضطراب الأمن ، وعصابة إتلاف الزرع والمواشى والدواب»^(٣).

وقد غلط القرآن الكريم جريمة الحرابة واعتبرها محاربة لله - سبحانه وتعالى - ولنبيه - صلى الله عليه وسلم - ولذا جاءت العقوبة مغلظة أيضاً ، لأن الجزاء فى الإسلام يكون من جنس العمل ، يقول تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤).

(١) رواه الطبرانى.

(٢) د. السيد سابق : فقه السنة (٤٤٦/٢).

(٣) د. السيد سابق : مرجع سابق.

(٤) المائدة ٣٣.

وقد بين القرآن الكريم حد الحرابة في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وكما هو ظاهر في الآية فإن للحرابة عقوبات أربع ، تختلف حسب نوع الفعل الصادر من الجاني ، وهذه العقوبات هي :

١-القتل : وتجب فيمن قطع الطريق وقتل.

٢-القتل مع الصلب : وتجب على من قتل وأخذ المال.

٣-القطع : وتجب على من أخذ المال ولم يقتل.

٤-النفى : وتجب على قاطع الطريق إذا أخاف الناس ولم يأخذ مالا ولم يقتل.

وإذا كانت القوانين الوضعية لم تعرف نظرية العقوبة غير المحدودة إلا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فإن الشريعة الإسلامية قد عرفت هذه النظرية وطبقتها منذ ثلاثة عشر قرناً ، وتلك عقوبة النفي شاهدة على ذلك.

فمن كان يظن أن القوانين الوضعية حين أخذت بهذه النظرية قد جاءت بشيء جديد ؛ فليعلم أنها لم تجئ إلا بأقدم النظريات في الشريعة الإسلامية ، ومن كان يظن أن عقوبات الشريعة ونظرياتها لا تصلح للعصر الحديث فلعله أن يستبين مما تقدم^(١).

(١) انظر عبدالقادر عودة : التشريع الجنائي الإسلامي ، (١/٦٥٦) وما بعدها.

المبحث الرابع

المقاومة بين الشريعة والقانون

كثر اللغط فى الآونة الأخيرة حول مشروعية المقاومة فى الدين الإسلامى والقانون الدولى ، وأخذ الغرب يتبارى فى كيل الاتهامات وتوجيهها إلى الإسلام بحجة أنه دين عنف وإرهاب لذا نعرض بشكل مختصر لتعريف المقاومة فى الشريعة الإسلامية والقانون الدولى ، وموقف كل منهما من هذه القضية التى أثارت جدلاً واسعاً فى الأوساط العالمية المختلفة.

مفهوم الجهاد :

وقبل أن نتناول هذا الموضوع يجدر بنا أن نتحدث عن مفهوم الجهاد فى الدين الإسلامى ، خاصة وأن هذا المفهوم قد تعرض لكثير من سوء الفهم والتأويل ، سواء من غير المسلمين أم من بعض المسلمين الذين لم يحسنوا فهم أحكامه وتعاليمه.

قال الراغب الأصفهاني «.. الجهاد هو استفراغ الوسع فى مدافعة العدو»^(١) وفى المعجم الوجيز «..(جَاهَدَ) العدو مجاهدةً وجهاداً : قَاتَلَهُ .. وشرعاً : قَتَالَ غير الذميين من الكفار...»^(٢) وفى المصباح المنير «..وجاهد فى سبيل الله جهاداً ، واجتهد فى الأمر : بذل وسعه وطاقته فى طلبه ليلبغ مجهوده ويصل إلى نهايته»^(٣). وقد فُرض الجهاد فى السنة الثانية للهجرة بموجب قوله سبحانه وتعالى ﴿كَتَبَ عَلَيْنَكُمُ الْقِتَالَ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا

(١) الراغب الأصفهاني : المفردات فى غريب القرآن ، مادة (جهد).

(٢) المعجم الوجيز / ١٢٢.

(٣) المصباح المنير ، ص ٤٤.

شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ»^(١). وقوله ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَدَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»^(٢).

الجهاد بين الكفاية والعينية :

الأصل في الجهاد أنه فرض كفاية ؛ بمعنى أنه إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وذلك مأخوذ من قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ»^(٣).

وروى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بعثا إلى بنى لحيان من هذيل فقال : «لينبعث من كل رجلين أحدهما ، والأجر بينهما ذلك لأنه «لو وجب على الكل لفسدت مصالح الناس الدنيوية فوجب ألا يقوم به إلا البعض...»^(٤).

قال ابن قدامة «والجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين ، ويتعين في ثلاثة مواضع :

١- إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان حرم على من حضر الانصراف ويتعين عليه المقام.

٢- إذا نزل الكفار بلدة تعين على أهلها قتالهم ودفعهم.

(١) البقرة / ٢١٦.

(٢) الحج ٣٩-٤٠.

(٣) التوبة / ١٢٢.

(٤) د. السيد سابق : مرجع سابق (٨٤/٣).

٣- إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير معه» (١).

ويقول ابن حزم فى المحلى «والجهاد فرض على المسلمين فإذا قام به من يدفع العدو ويعزوهم فى عقر دارهم ويحمى ثغور المسلمين سقط فرضه عن الباقيين وإلا فلا قال الله تعالى ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ . . . ولا يجوز إلا بإذن الأبوين إلا أن ينزل العدو ويقوم من المسلمين بفرض على من يمكنه إعانتهم أن يقصدهم مغنياً لهم ، أنن الأيوان أم لم يأذنا ، إلا أن يضيعا أو أحدهما بعده فلا يحل له ترك من يضيع منها» (٢).

أهداف الجهاد فى الإسلام :

دعا الإسلام إلى الجهاد ورغب فيه ، وجعل المولى سبحانه وتعالى مثوبته مضاعفة ، ووعد المجاهدين والشهداء بجنات تجرى من تحتها الأنهار فى جنات النعيم لقاء ما يبذلونه من أموالهم وأنفسهم فى سبيل نصرته دينه سبحانه.

وإذ كان الإسلام قد دعا إلى الجهاد ورغب فيه ، فإنه لم يجز الحرب إلا فى بعض الأحوال ، فالأصل فى الإسلام السلم لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٣).

وهكذا نجد أن الإسلام قد نبذ دعوى الجاهلية التى كانت تفرع طبول الحرب لأتفه الأسباب ، والتاريخ شاهد على ذلك ، فكم من الحروب قامت لأسباب أقل من أن تذكر ، وخلفت قتلى أكثر من أن يذكروا.

إن الجهاد لا يسمى جهاداً حقيقياً إلا إذا قصد به وجه الله ، وأريد به إعلاء كلمته، ورفع راية الحق ، ومطاردة الباطل ، وبذل النفس فى مرضاة الله ، فإذا

(١) ابن قدامة المقدسى : المغنى (٦/١٣).

(٢) ابن حزم : المحلى (٣٤٠/٥) بتصرف.

(٣) البقرة / ٢٠٨.

أريد به شئ دون ذلك من حظوظ الدنيا ، فإنه لا يسمى جهاداً على الحقيقة ، فمن قاتل ليحظى بمنصب ، أو يظفر بمغرم ، أو يظهر شجاعة ، أو ينال شهرة ، فإنه لا نصيب له فى الأجر ، ولا حظ له فى الثواب» (١).

وتتلخص مقاصد الجهاد فى مقصدين رئيسين :

١- حماية الدعوة الإسلامية.

٢- رد العدوان . (الدفاع الشرعى).

١. حماية الدعوة الإسلامية :

الدعوة إلى دين الله - عز وجل - من أسمى الوظائف وأنبهها ، وقد استحققت أمة محمد صلى الله عليه وسلم - خيريتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٢).

ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم «لأن يهدى الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم - وهى نوع من الإبل الحسان.

إن الهدف الرئيسى للقتال فى الإسلام هو نشر العقيدة الإسلامية عن طريق تأمين حرية العقيدة للناس جميعهم ، حتى يقبلوا على أية عقيدة تروق لهم ، ويدخل فى هذا الهدف تأمين حرية العقيدة والعبادة لغير المسلمين» (٣).

ومع أن المولى سبحانه وتعالى قد شرع القتال لنشر دين الله عز وجل إلا إنه نهى عن إكراه الناس على الدخول فى الإسلام ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ

(١) د. السيد سابق : مرجع سابق (٩١/٣) بتصرف.

(٢) آل عمران / ١١٠.

(٣) د. جعفر عبدالسلام : الإسلام وحقوق الإنسان ، ص ٨٥.

لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»^(١). وقوله أيضاً «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ»^(٢). وقوله «فَذَكَّرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسْتَظَرٍّ»^(٣).

ولا شك أن استخدام القتال في الفتح الإسلامى غالباً ما يكون فى صالح الغالبية العظمى من الشعوب المقهورة التى تخضع كرها لسلطان الملوك ورجال الدين ، وهما الفئتان اللتان تعتبران ألد أعداء الدين الجديد ، والقتال فى الإسلام «إنما هو مصلحة عموم المشركين الذين يخضعون لسلطان الكفر ، لأن المسلمين يريدون بهذا القتال رفع هذا الحكم الكافر وشرائعه ، فمن شاء آمن ومن شاء بقى على كفره بشرط الولاء للدولة الإسلامية ، وهذا كله من مصلحة المشركين الدنيوية والأخروية ، أما الدنيوية فتظهر فى تمتعهم بعدل الإسلام ، واحتمال دخولهم فيه عن رضى واختيار لا عن جبر وإكراه ، وفى هذا سعادتهم وفوزهم فى الآخرة»^(٤).

٢- رد العدوان (الدفاع الشرعى) :

اتفق جمهور الفقهاء على أن الجهاد فرض كفاية ، بحيث إذا قام به البعض سقط الإثم عن الآخرين ، إلا إنهم اشترطوا لذلك ألا يكون العدو فى دار الإسلام.

«والجهاد حال كونه فرض عين هو المقاومة الشعبية المسلحة ، والخطاب فى شأنها موجه إلى عموم أفراد الأمة الإسلامية فى الآية الكريمة «انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٥).

- والآيات والتوجيهات القرآنية فى هذا الشأن كثيرة جداً ومنها :

(١) البقرة / ٢٥٦.

(٢) يونس / ٩٩.

(٣) الغاشية / ٢١-٢٢.

(٤) د. عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ، ص ٢٧٦ (بتصرف).

(٥) التوبة / ٤١.

- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

- ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٢).

- ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٣).

- ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٤).

- والثبات في مواجهة الأعداء مطلوب ولو كان شرط التكافؤ غير متوافر ، يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٥). ويقول أيضاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٦).

وقد عَدَّ النبي صلى الله عليه وسلم التولى يوم الزحف من الكبائر التي لا كفارة لها ، وذلك لما لهذا التولى من آثار سلبية على بقية الأفراد من الجيش. وقد تضطر المرأة للاستراك مع الرجال في الحرب عند الدفاع المشروع ، حيث «إن وجوب

(١) البقرة / ١٩٠.

(٢) البقرة / ١٩٣.

(٣) الأنفال / ٣٩.

(٤) الحج / ٣٩-٤٠.

(٥) الأنفال / ٤٥.

(٦) الأنفال / ٦٥.

المقاومة ، والتقدم لمناهضة العدو ، قد امتد فشمّل النساء أيضاً ، فعلى الرغم من أن الأصل وجوب الجهاد على الرجال دون النساء ، فإن ضرورة الغزو تجعل الجهاد جائزاً بل واجباً على المرأة القادرة ، يقول الإمام الشيباني : لا يعجبنا أن يقاتل النساء مع الرجال في الحرب إلا أن يضطر المسلمون إلى ذلك ، وقد استدلل الشيباني على ذلك بقصة أم سليم بنت ملحان التي ثبتت مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين» (١).

شروط الدفاع الشرعى :

إذا كانت الشريعة الإسلامية قد أوجبت الدفاع عن ديار الإسلام ضد أى عدوان تتعرض له ، فإنها قد وضعت لهذا الرد ضوابط تحكمه ، ولم تتركه للأهواء والذمم تتصرف فيه كيف تشاء ، وقد اشترط جمهور الفقهاء شرطين للدفاع الشرعى ، هما :

أ- شرط اللزوم.

ب- شرط التناسب.

أ. شرط اللزوم :

أى لزوم فعل الدفع لرد العدوان فالآية تقول ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٢) أى لا تبادروا أنتم بالعدوان ، فإن كف العدو يده عنكم فكفوا أيديكم عنه ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٣).

ب. شرط التناسب :

«معنى أن يكون رد العدوان متناسباً مع الفعل الذى مورس به العدوان ، ولا

(١) انظر د.صلاح الدين عامر : المقاومة الشعبية المسلحة ص ٨٩ بتصرف.

(٢) البقرة / ١٩٠.

(٣) البقرة / ١٩٣.

يجوز التزيد فى هذا الصدد ، وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة بوضوح ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْيْتُمْ بِهِ وَلَنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١) وعليه يحرم الفقه الإسلامى عمليات الانتقام الجماعى من الأبرياء رداً على الاعتداء الفردى سواء فى الحرب العادية ، أم فى الحروب الأهلية.. » (٢).

آداب القتال والمقاومة :

شرع المولى عز وجل القتال وجعله فرضاً على أهل الإسلام إذا ما تعرضوا للعدوان من جانب الأعداء ، أو منعوا من تبليغ دعوة الله عز وجل.

وإذا كان الإسلام قد شرع القتال فإنه لم يطلق العنان للمسلمين فى استخدام هذه الوسيلة وإنما قننها ووضع لها الضوابط والمعايير التى تحكمها، فنهى القرآن عن الإسراف فى القتل والمبالغة فى الانتقام يقول تعالى ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْيْتُمْ بِهِ وَلَنْ صَبِرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (٣).

وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا بعث أصحابه لقتال قال «انطلقوا باسم الله ، وبالله ، وعلى ملة رسول الله ، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلاً صغيراً ، ولا امرأة ولا تغلوا ، وضموا غنائمكم ، وأصلحوا وأحسنوا ، إن الله يحب المحسنين».

وكان يوصى جنوده قائلاً : لا تقتلوا أصحاب الصوامع (٤) «وهم رجال الدين الذين انقطعوا للعبادة كما نهى صلى الله عليه وسلم عن التمثيل بالقتلى من الأعداء أو حتى ببهائمهم ، فكان يقول «لا تمثلوا بالبهايم» (٥).

(١) النحل / ١٢٦.

(٢) د. جعفر عبدالسلام : مبادئ القانون الدولى . ص ٨٠١.

(٣) النحل / ١٢٦.

(٤) ابن حزم : مرجع سابق (٣٤٨/٥).

(٥) نفس المرجع : (٣٤٩/٥).

وعلى نهج النبي صلى الله عليه وسلم سار الخلفاء الراشدون ، فكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه - يوصى قائد الجيش قائلاً له : لا تعقرن شاة ولا بغيراً إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه»^(١).

وهكذا نجد أن الشريعة الإسلامية قد حددت الفئات التى يجب قتالها ، واستثنت بعض الفئات مثل :

أ- رجال الدين: وهم الذين انقطعوا للعبادة وإقامة الشعائر.

ب- النساء: وهن النساء اللاتى لم يخرجن لقتال المسلمين.

ج- العجزة: وهم الذين لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من غير القادرين على القتال.

د- من لم يشترك فى الحرب ضد المسلمين . وهم من يسمون بـ«المدنيين».

ونهى الإسلام عن الإفساد فى أرض العدو ، بشتى الصور مثل:

١- قطع الأشجار.

٢- حرق الديار وهدمها.

٣- إغراق الزروع والثمار.

٤- عقر البهائم.

كما نهى الإسلام عن استخدام الأسلحة الحرمية والطرق البشعة فى القتل مثل :

١- حرق الأعداء.

٢- التمثيل بجثثهم.

^(١) نفس المرجع : (٣٤٧/٥).

وهكذا سبق الإسلام كل النظم الوضعية فى حماية حقوق الإنسان على كل الظروف والأحوال ، فدعا القرآن الكريم إلى تكريم الجنس البشرى على غيره من الأجناس الأخرى ، وجعل لغير المسلم حقوقاً فى حال الحرب والسلام . ولا يخفى على كل ذى لب أن الإسلام قد فاق كل هذه النظم فى تطبيقه لهذه القواعد ، فكم من دولة كالولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا تشدقت بحقوق الإنسان وهى عنها بعيدة ، والأحداث التى يمر بها العالم الإسلامى فى هذه الأمة خير دليل على ذلك وما تفعله إسرائيل الآن بالشعب الفلسطينى قد فاق كل الحدود والمعايير ، حتى إن الإسرائيليين يبحثون عن طرق جديدة للقتل ، بعد ما ملؤا تلك الطرق التقليدية. وصدق الشاعر الحكيم حين قال :

ملكننا فكان العفو منا سجيةً ... فلما ملكتم سالت بالدم أبطح

المبحث الخامس

المقاومة فى القانون الدولى

تعريف المقاومة فى القانون الدولى :

يمكن تعريف المقاومة فى القانون الدولى بأنها «عمليات القتال التى تقوم بها عناصر وطنية من غير أفراد القوات المسلحة النظامية دفاعاً عن المصالح الوطنية أو القومية ضد قوى أجنبية ، سواء كانت تلك العناصر تعمل فى إطار تنظيم يخضع لإشراف وتوجيه سلطة قانونية أو واقعية ، أو كانت تعمل بناءً على مبادراتها الخاصة ، سواء باشرت هذا النشاط فوق الإقليم الوطنى أو من قواعد خارج هذا الإقليم. . .»^(١).

قواعد القانون الدولى :

والدفاع الشرعى فكرة عرفتها كافة الأنظمة القانونية ، وتأكدت كمبدأ أساسى فى القانون الدولى ، وقد أشار إلى ذلك «مونتسكيو» فى مؤلفه روح القانون ، يقول «إن حياة الدول مثل حياة الناس ، فكما أن للناس حق القتل فى حالة الدفاع الطبيعى، فإن للدول حق الحرب لحفظ بقائها»^(٢).

لقد عنى فقه القانون الدولى الإنسانى بإبراز هذا الحق من حقوق الإنسان ، ذلك الحق الذى بدأت صياغته فى مؤتمر بروكسل ١٨٧٤م غير أنه لم يكتب له النجاح ، وأقر فى مؤتمر لاهاى عام ١٩٠٧م إذ تضمنت المادتان الأولى والثانية من لائحة الحرب البرية الملحقة باتفاقية لاهاى الرابعة»^(٣).

وارتبط مبدأ الدفاع الشرعى بمبدأ حظر استخدام القوة بين الدول بعضها البعض، وقد أقر ميثاق بريان كيلوج ١٩٢٨م «حق الدول فى أن تدافع عن نفسها باستخدام

(١) د. صلاح عامر : مرجع سابق ، ص ٤٠.

(٢) د. إبراهيم العنانى : مرجع سابق ، ص ٨٩.

(٣) لواء سيد هاشم : حماية المدنيين فى الأراضى المحتلة ، ص ٣٩.

القوة إذا ما تعرضت لاعتداء من دولة أخرى وكانت المادة الثانية عشر من ميثاق عصبة الأمم قد أكدت على التزام الدول إذا قام نزاع بينهما يهدد السلم الدولي بالالتجاء إلى الطرق السلمية لفضه ، وذلك بعرضه على التحكيم أو القضاء أو على مجلس العصبة وألا تلجأ إلى الحرب إلا بعد مضي ثلاثة أشهر على الأقل من صدور قرار أو حكم فى النزاع ، فإن قبلت إحدى الدولتين المتنازعتين القرار أو الحكم امتنع على الدولة الأخرى الدخول فى حرب ضد الدولة القابلة للحكم أو القرار والدولة التى تخالف هذا النظام تعتبر مرتكبة لعمل من أعمال الحرب ضد كل دول العصبة ، ويجب على دول العصبة تقديم المساعدة اللازمة للدولة القابلة للحكم أو القرار .. » (١).

وبعد فشل عصبة الأمم فى حماية الأمن الدولي ، استبدلت بهيئة الأمم المتحدة التى أقرت نظاماً دولياً يحرم اللجوء إلى القوة لفض ما يثور بين الدول من منازعات ، واستثنى ميثاق هيئة الأمم المتحدة من هذا المبدأ بعض الحالات منها:

أ- حالة الدفاع الشرعى عن النفس.

ب- حق تقرير المصير.

أولاً : حالة الدفاع الشرعى عن النفس :

نص ميثاق هيئة الأمم المتحدة فى المادة ٥١ على مايلى :

ليس فى هذا الميثاق ما يضعف أو ينتقص الحق الطبيعى للدول فرادى أو جماعات فى الدفاع عن أنفسهم إذا اعتدت قوة مسلحة على أحد أعضاء الأمم المتحدة ، وذلك إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولي والتدابير التى اتخذها الأعضاء استعمالاً لحق الدفاع عن النفس تبلغ فوراً إلى المجلس ، ولا تؤثر تلك التدابير بأى حال من الأحوال ، فيما للمجلس بمقتضى

(١) د. صوفى أبو طالب : الكفاح المشروع للشعوب ، بحث مقدم للمؤتمر الرابع عشر للمجلس

الأعلى للشئون الإسلامية ، ص ٤٩.

سلطته ومسئوليته المستمدة من أحكام هذا الميثاق - الحق في أن يتخذ في أى وقت ما يرى ضرورة لاتخاذ من الأعمال لحفظ السلم والأمن الدولى أو لإعادته إلى نصابه^(١).

وهكذا فإن الدفاع الشرعى هو استثناء جوهرى على مبدأ حظر استخدام القوة ، وعلى هذا الأساس فإن الميثاق قد وضع ثلاثة قيود عند استخدام القوة فى الدفاع الشرعى وهى :

١-وجود حالة اعتداء مسلح.

٢-يمارس حق الدفاع الشرعى إلى أن يتخذ مجلس الأمن التدابير اللازمة لحفظ السلم والأمن الدولى.

٣-خضوع حق الدفاع الشرعى لرقابة مجلس الأمن.

وقد أوردت اتفاقيات جنيف الأولى والثانية (م١٣) والثالثة (م٤) الأفراد المدنيين فى المقاومة المسلحة بإعطائهم وصف المقاتلين ، ومن إعطائهم حقوق المقاتلين^(٢).

ثانياً : حق تقرير المصير :

وقد نصت على هذا الحق الفقرة الثانية من المادة الأولى من الميثاق وأكدت المادة ٥٥ ، ثم جاءت اتفاقيتا لاهى وجنيف صريحتين فى إضفاء الحماية على أفراد قوات المقاومة واشترطت :

١-أن تكون هذه الحركات تحت قيادة شخص مسئول عن مرسوميه.

٢-أن تكون لها علامة تميزها بحيث يمكن معرفتها عن بعد.

٣-أن تحمل أسلحتها بشكل ظاهر.

٤-أن تقوم بعملياتها طبقاً للقوانين وأعراف الحرب^(٣).

(١) مبادئ القانون الدولى العام ، ص ٨١٩.

(٢) انظر اتفاقيات جنيف ، ط اللجنة الدولية للصليب الأحمر.

(٣) اتفاقيات جنيف : المرجع السابق ، ٨٢١.

إلا إن هذه الشروط المشروعة للمقاومة - كما تبدو - قد صيغت بهدف خدمة الدول الاستعمارية الكبرى ، وإلا لما اشترطت وجود شارة مميزة لتلك القوات وكذلك حمل الأسلحة بشكل ظاهر .

وفى هذا الصدد أصدرت الجمعية العامة عام ١٩٦٠م قراراً ينص على حق الشعوب فى تحديد نظامها السياسى وتحقيق النمو الاقتصادى والاجتماعى والثقافى ، وأنشأت الجمعية نخبة تختص بتصفية الاستعمار فى عام ١٩٦١م . وفى عام ١٩٦٥م أصدرت الجمعية قراراً يطالب الدول الاستعمارية بالكف عن سياسة خرق حقوق الشعوب بتهجيرهم وإحلال المهجرين الأجانب مكانهم .

وقد توالى القرارات فى هذا الشأن فصدر قرار الجمعية فى نوفمبر ١٩٦٦م وديسمبر من نفس العام حيث تم إقرار حق الشعوب المغلوب على أمرها فى استخدام القوة فى كفاحها من أجل الحصول على الاستقلال ، كذلك صدر قرار فى أكتوبر ١٩٧٠م كما صدر القرار ٣١٠٣ فى ديسمبر ١٩٧٣م وتضمن التأكيد على أن كفاح الشعوب الخاضعة للسيطرة الاستعمارية والأجنبية والنظم العضوية فى سبيل حقها فى تقرير مصيرها والاستقلال هو كفاح مشروع وأن كل محاولة لقمع هذا الكفاح يشكل تهديداً للسلم والأمن الدوليين ... (١) .

شرعية المقاومة الفلسطينية :

وفى ضوء ما سبق يمكننا القول بأن المقاومة الفلسطينية فى الأرض المحتلة تستمد شرعيتها من مبادئ ثلاثة أقرتها القوانين الدولية ، وهذه المبادئ هى :

أولاً : حق الدفاع الشرعى :

فالواقع أن الشعب الفلسطينى يتعرض لعدوان صهيونى غاشم يستهدف محو الهوية الفلسطينية منذ وقت طويل ، وقد بلغ ذروته منذ اجتياح «شارون» المسجد الأقصى فى الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ٢٠٠٠م .

(١) د. صوفى أبو طالب : مرجع سابق ، ص ٦٧ .

ولما كانت إسرائيل هي الدولة المعتدية فقد كان للدولة الفلسطينية حق الدفاع الشرعى فى ضوء القوانين الدولية على النحو الذى بيناه فى هذا الفصل.

والمقاومة الفلسطينية للدفاع عن نفسه فى مواجهة العدوان الإسرائيلى المستمر والمتصاعد ، وهى الأداة الوحيدة المتاحة أمام ذلك الشعب للوصول إلى حقه^(١).

ثانيا : حق تقرير المصير :

فمن حق كل الشعوب المستعمرة أن تقرر مصيرها وهو من الحقوق الأساسية لأى شعب من الشعوب ، وقد اعترفت الأمم المتحدة بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره وذلك فى توصيتها بتاريخ ٨ ديسمبر ١٩٧٠م.

ثالثا : إزالة انتهاك حقوق الإنسان :

فانتهاك حقوق الإنسان يعد بمثابة أساس قانونى لحق الشعب الذى يتعرض لذلك الانتهاك فى ممارسة المقاومة الشعبية المسلحة ، فى مواجهة عدو أجنبى كأداة من أدوات المساعدة الذاتية بهدف دفع وإزالة ذلك الحيف والظلم^(٢). ويمكن القول بأن الشرعية الدولية العامة للمقاومة الفلسطينية يمكن أن تستند إلى وصفها بأنها وسيلة من وسائل المساعدة الذاتية يمارسها الشعب الفلسطينى ضد انتهاك حقوق الإنسان الأساسية وهو ما تمارسه إسرائيل على النحو التالى :

- قتل المدنيين بكافة أشكالهم دون تمييز بين الفئات كالأطفال والنساء والشيوخ.
- هدم المنازل على من فيها وفى ذلك قمة الانتهاك لحقوق الإنسان.
- الاعتقال العشوائى للشعب الفلسطينى.
- محاكمة الفلسطينيين بشكل غير عادل.
- نفى بعض الفلسطينيين إلى خارج الدولة.

(١) د. صلاح عامر : مرجع سابق ، ص ٥٤٠.

(٢) د. صلاح عامر : مرجع سابق ، ص ٥٤٦ بتصرف.

- إشاعة الذعر والخوف بين طوائف الشعب المختلفة.
 - رفض لجان تقصى الحقائق حول المذابح التي ترتكبها فى المدن والقرى الفلسطينية وأخرها مذبحة جنين.
 - رفض عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى أوطانهم مخالفة بذلك قرارات الأمم المتحدة.
 - منع المسلمين من ممارسة شعائرهم الدينية وهو ما يتنافى مع قواعد القانون الدولى ومواثيق الأمم المتحدة.
 - منع الجرحى من الوصول للمستشفيات.
 - قطع الإمدادات الغذائية والمساعدة الإنسانية عن الشعب الفلسطينى.
 - عدم التفريق بين الأهداف العسكرية والمنشآت المدنية.
 - تدمير البيئة الطبيعية وكذلك البنية التحتية للدولة الفلسطينية.
- تلك هى بعض الممارسات الإسرائيلية فى الأراضى المحتلة ، وإذا أردنا إحصاءها لأعياننا ذلك ولما استطعنا ، وحسبنا من ذلك ما ذكرناه لكى نبرهن على الانتهاكات الإسرائيلية لقواعد القانون الدولى ، وعدم الاكتراث بالرأى العالمى.

خاتمة

كانت هذه دراسة متواضعة حول «الفرق بين الإرهاب والمقاومة المشروعة» من الناحيتين الشرعية والقانونية ، وما كان لى أن انتهى من إعداد هذا البحث قبل أن أشير إلى بعض النقاط التى تراءت لى بعد الانتهاء منه.

- أشار مفهوم الإرهاب جدلاً حاداً وواسعاً على مستوى العالم أجمع نظراً لما أحاط بتحديد هذا المفهوم من اعتبارات سياسية ونظرات شخصية.
- إن مصطلح الإرهاب مصطلح نسبى يختلف عن المصطلحات الأخرى فى صعوبة ضبطه وتحديدده نظراً لتجدد الوسائل والأهداف التى تنفذ بها الأعمال الإرهابية ، إلا أننا يمكننا تعريف الإرهاب بأنه «استخدام العنف غير المشروع أو التهديد به ضد فرد أو مجموعة من الأفراد بغية الوصول إلى هدف معين ، سواء قام بهذا العمل فرد أو جماعة أو مؤسسة أو دولة من الدول.
- يأخذ الإرهاب صوراً كثيرة ومتتابعة شهدت تطوراً مفاجئاً وسريعاً فى العقد الأخير من القرن العشرين.
- أدانت المواثيق والفوانين الدولية الإرهاب بشتى صورته بوصفه اعتداء يصل إلى حد العمل الإجرامى.
- إن الإسلام بعيد كل البعد عن الإرهاب وقد جرم الإرهاب قبل أن تجرمه المواثيق الدولية ، ووضع له عقوبة قبل أن تضعها النظم الوضعية.
- المقاومة فى الشريعة الإسلامية هى الجهاد فى صورته الكفائية أى حال كونه فرض عين على المسلمين.

- نظم الإسلام الدفاع الشرعى وجعل له شروطاً منها اللزوم والتناسب ، كما نظم القتال وجعل له آداباً وقد فاق بذلك كل المواثيق الدولية وسبقها في مجال حقوق الإنسان سواء في السلم أم في الحرب.

- الدفاع الشرعى فكرة عرفتة كافة الأنظمة القانونية وقواعد القانون الدولى منذ وقت طويل.

- تستمد المقاومة الفلسطينية شرعيتها من ثلاثة مبادئ قانونية :

١-حق تقرير المصير.

٢-حق الدفاع الشرعى.

٣-إزالة انتهاك حقوق الإنسان.

